السياسة التوجيهية في الأزهر

للأستاذ محمد محمد المدني

في العـدد (٣٩١) من « الرسالة » مقال كتبه الأستاذ محمود الشرقاوي ، بمناسبة مقال في العدد الذي قبله للدكتور محمد البهي عن « شخصية الأزهر العلمية »

والأستاذ الشرقاوي يصف مقال الدكتور البهي بأنه مقال جيد ، وفيه صدق كثير ، وقد أثار في نفسه طائفة من الخواطر يعتقد أن فيها — هي أيضاً — صدقاً كثيراً وفيها صراحة

ومع أن الأستاذ يبدو معارضاً لفكرة الدكتور ، بل مهاجماً له فإن من يتأمل فيما قاله يجده قد وافقه في كل ما قاله ، ثم نقل البحث إلى شيء آخر

ولست فيما أكتب اليوم بالمدافع عن أعضاء البعوث الأزهرية إلى أوربا ، فذلك شأن يخصهم ، وهم أولى بأن يردوا على أسئلة الأستاذ التي وجهها إليهم ؛ ولست كذلك مهاجماً لأحد من الناس أو لطائفة من الطوائف ، ولكني أريد أن أقول إن الأستاذ الشرقاوي لم يكن صريحاً على الرغم مما ادعاه لنفسه من الصراحة في أول مقاله ؛ فهو يقول للدكتور البهي : لا تحدثنا عن إنتاج جماعة كبار العلماء ، ولا عن قيمة هذا الإنتاج في نظر العلم ، ولكن حدثنا عن إنتاج هذه البعوث الأزهرية التي أنت واحد من أعضائها ، والتي وضع الأزهر فيها آماله ، وظل يرقبها في لهف وشوق ، مملاً نفسه بعهد جديد يمتاز بالحرية في الرأي ، والاستقلال في التفكير : أين هو هذا الإنتاج ؟ وأين طابع هذه البعوث الخاص الذي تتميز به عن أشياخها ؟ وأين التجديد الذي أفاده الأزهر من بعثة الإمام محمد عبده أو بعثة فؤاد الأول ؟

هكذا يتساءل الأستاذ ، ثم يصرح بأنه لم ير دليلاً يدل على أن هذه البعثات قد جددت ، أو سارت على نهج غير النهج الذي سار عليه الأشياخ من قبل « فلا هي قد أقامت في الأزهر مدرسة للتجديد خاصة ، ولا نهجت فيه منهجاً دراسياً ولا تأليفياً خاصاً ، ولا لمت حولها معسكراً جديداً يرفع معها وبعدها شعلة النور في الأزهر ... الخ »

ثم يحاول الأستاذ تعليل ذلك ، فيجد نفسه « أمام واحد من فرضين : إما أن تكون هذه البعوث لم تفد شيئاً مما درست في جامعات أوربا ، ولم ترتفع بتفكيرها عن أشياخها وعن زملاء أعضائها الذين لم يبعثوا ولم يدرسوا ... وإما أن تكون هذه البعوث العلمية قد أفادت من دراستها الأوربية عقلية جديدة حرة وتفكيراً جديداً حراً ... الخ »

كانت طموحة ، لأن الطموح يتطلب قوة وتضحية ، وهو في مجموعه دليل على كبرياء النفس ، والكبرياء فضيلة إذا كانت سلاحاً من أسلحة النضال

إن مظاهر الكذب التي ألمنا بها تجعلنا نستنتج أن كل الناس يمثلون دور المنفعة على مسرح الزمان ، وأنهم في اطمئنانهم إلى ما يلعبونه يصبح الدور الذي يمثلونه أقرب إلى حقيقتهم من الأصل . لقد أصاب شكسبير كبد الحقيقة عند ما تلهى بهؤلاء الأشباح وجعلهم يمثلون دور المجانين حتى صاروا في حقيقتهم مجانين

إن الأشياء والبشر كافة يغالطون في هـذا التيار المظلم الذي ندعوه الحياة .

القلب يغالط العقل ، والعقل يغالط القلب ...

يولد الطفل ممسكاً بيديه أوراق لعب كبيرة ثم يرميها في الحياة مناضراً بها فإما أن تنطلي حيلته فينعم بما ربح ، وإما أن تنفضح فيشقى بما فقد

* * *

وبعد ، فقد تعودت كل طائفة من الناس النظر في شئونها عند نهاية السنة المقررة لها . فالزارع يجيل رأيه فيما زرع وحصد ، والتاجر يوازي بين ما اشترى وما باع ، والحكومة توازن بين ما جمعت وما أنفقت ؛ وهكذا فإن من فضائل الوقف بين عامين أنه يثير في النفس شتى الأفكار والتأملات

وقد تنازعت نفسي هذه الأفكار وأنا أصغي إلى صراخ الإنسانية وأنينها ، وإلى دوي المدافع وترجيع صداها ، وإلى خصومات الأمم ودعاياتهم ، وإلى صرير أقلام الكتاب ودوي آلات الإذاعة والطباعة ؛ فرأيت أن أدون ما جال بخاطري ، ولعلي أصبت المرمى ولم أخطئ السبيل .

صبري شيبوب

ردد الأستاذ بين هذين الأمرين ، ولكنه نفى الأول منهما مستدلاً بأن أعضاء هذه البعوث جميعاً مبرزون فى دراساتهم الجامعية ، وفى درجاتهم العلمية التى نالوها ، وفى البحوث التى فازت بالتقدير ، فهو إذاً يستبعد الغرض الأول ويستبقى الغرض الثانى ، وهنا ينتهى عهده مع الصراحة ، فيفر من مواجهة الحقيقة التى يراها ، ويعود إلى الترديد فيقول : هل يتوجه اللوم فى عدم إنتاج هذه البعثات إليهم أم أين يتوجه ؟

كأنى بالأستاذ الشرقاوى يريد أن يكون صريحاً فى نفس الموضوع كما كان صريحاً فيما وجهه إلى الدكتور البهى ، فهو يهم بأن يطلق لنفسه العنان ثم يعود فيؤثر الإبهام ، وكأنى به منفقاً مع صاحبه فى كل ما ذكره غير مخالف له فى شىء منه ، ولكنه يؤثر أن يظهر فى ثوب المعارض له

ولا علينا من ذلك ، ولكننا نسأل الأستاذ الشرقاوى : ما هى الناحية الثانية التى يحتمل أن يتوجه إليها اللوم ؟ ما هو هذا الشىء الذى يحتمل أن يكون قد صرف أعضاء البعوث عن الإنتاج مع قدرتهم عليه ؟ أتقصد به أن البيئة الأزهرية غير صالحة لتلقى الفكر الجديدة ، وتقبل الإنتاج الحر المبنى على التفكير المستقل لأنها مازالت تعد التجديد خروجاً على ما ينبغى من تقديس القديم والفناء فيه ، والدوران من حوله ؟ أم تقصد أن التجديد والإنتاج العلمى مرتبطان بالسياسة التوجيهية ، فكلما كانت هذه السياسة ماضية فى طريقها القويم ، حريصة على تشجيع العاملين ، وإثارة الجهود ، والانتفاع بالمواهب ، نما الإنتاج ، وكثر المنتجون ، وتشجع العاملون . وكلما انحرفت هذه السياسة عن طريقها القويم وأدخلت فى تقدير الأعمال اعتبارات غريبة عنها ، فترت الهمم ، وكلت العزائم ، وضعف التفكير ، وقل الإنتاج ؟

نحن نعرف أن كثيراً من الاعتبارات قد يعوق سير الإصلاح ، ويصرف الساسة الموجهين عن الطريق ، ويلويهم من حيث يريدون أو لا يريدون عما رسموه من الإصلاح وأخذوا به أنفسهم من التوجيه

فقد يكون فى بيئة من البيئات رجل حر الضمير ، مستقيم الفكرة ، له فى الإصلاح برنامج شريف ، وله غيرة محمودة على هذا البرنامج ، ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً من أن يجامل شخصاً ما فيسند إليه عملاً ممتازاً من الأعمال الإصلاحية ، لا لأنه ممتاز فى نفسه ، ولا لأنه ناجح فى عمله ، ولا لأنه لا يوجد فى أقرانه من هو خير منه ، ولكن لاعتبار آخر ، كأن يكون صديقاً مثلاً ، أو أن يكون قد تطلع فى يوم ما إلى منصب ما فلم ينله ، فمن الرأى أن يترضى ، ومن الرأى أن يعوض !

وقد يحيط بالمصلح الشريف المخلص أعوان شرفاء مخلصون لا يدفعهم إلا الإخلاص للفكرة الإصلاحية ، ولكنه مع ذلك ربما أهمل آراءهم ، لا لأنه بحثها فتبين وجه الخطأ فيها ، ولا لأنه اقتنع بأن غيرها أولى بالقبول منها ، ولا لأن أصحابها مشكوك فى إخلاصهم أو فى حسن تقديرهم ، ولكن لاعتبار آخر لا ينبغى أن ينظر إليه ، ولا أن يغلب جانبه ، كالميل إلى تمثيل عنصر معين فى ناحية من النواحى

وقد يخضع المصلح لاعتبارات أخرى غير هذه وتلك ، يدفعه إليها على الرغم منه قانون تقليدى ، أو عرف قائم ، فتراه مثلاً لا يسند أعمالاً خاصة إلا إلى طائفة خاصة ، لا لأن هذه الطائفة أجدر من غيرها بتولى هذه الأعمال ، ولا لأنها أقدر من غيرها على السير بها فى طريق النجاح ، ولكن لاعتبار آخر قد لا يكون له صلة بهذا الموضوع أصلاً ، كاعتبار شرط التوغل فى السن مثلاً فى حق الأعضاء الذين ينتخبون لعضوية جماعة ما ، أو يرشحون لتولى منصب ما وهكذا

نعرف هذا كله ، ونعرف أنه شر ما تصاب به بيئة من البيئات ، وأنه داء خطير يصيب الإنتاج العام بالشلل ، ويؤدى إلى الخمود والركود ، ثم إلى الانحلال والموت !

ونعرف أيضاً أن العامل الذى يجد أن المقاييس التى من حوله ليس أساسها التفكير والعمل والدأب والإنتاج ، وإنما أساسها شىء آخر غريب عن هذا كله ، وبعيد عن هذا كله ، هذا العامل لا يلبث أن يفتر ، وأن يضعف ، لأن القدرة على الإنتاج وحدها غير كافية ، ولكن ينبغى أن يصاحبها التشجيع والإغراء

فهل يريد الأستاذ الشرقاوى شيئاً من ذلك ويعنيه شىء ما أن يقوله ، وأن يكون صريحاً فيه ؟

ألا إنه لو علل ما يقول به من عقم البعوث العلمية بالسياسة التوجيهية لما كان منصفاً ، ولما قال صواباً ، فإن على رأس الأزهر شيخاً ممتازاً فى تفكيره ، ممتازاً فى شخصيته ، بعيد النظر فيما يقدم